الشعر في عهد الرسول:
موضوعاته وخصائصه الفنيّة
مقاربة عامّة مكثّفة

د. يوسف حسين بكّار
قسم اللغة العربية - كلية الآداب - جامعة اليرموك

انبجس موقف الإسلام من الشعر[١] من موقفه العام من مظاهر الحياة العربيّة عامّة، الذي تحدّد في ثلاثة مواقف صارمة: الإبقاء على ما يتواءم مع أوامره ونواهيه، ومنع ما يتعارض معها، وتعديل ما يحتاج إلى تعديل أو تطويعه.

إن الإسلام، ممثلاً بالقرآن الكريم، لم يحظر الشعر من حيث هو شعر أو فنّ من فنون القول، بل حظر الموضوعات التي تتنافى مع مبادئه، وهاجم الشعراء المشركين الذين كانوا

(١) راجع تفاصيل وافية في: يحيى الجبوري: **شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه**، (مكتبة النهضة، بغداد، ١٩٦٤م)؛ **الإسلام والشعر**، (مكتبة النهضة، بغداد، ١٩٦٤م)؛ سامي مكي العاني: **الإسلام والشعر**، (عالم المعرفة، الكويت، ١٩٨٣م)؛ شوقي ضيف: **العصر الإسلامي**، (دار المعارف، القاهرة، ط٢، د.ت).

يؤذون الرسول، ﷺ، ويهجونه في بداية الدعوة. واستثنى، سبحانه، الشعراء المؤمنين الذين تقيّدوا بالمبادئ الإسلاميّة كما في قوله تعالى ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾[٢]. يريد شعراء النبيّ ﷺ، الذين انتصروا له، وأجابوا شعراء المشركين عنه، لاسيّما الثالوث الرّسولي: حسّان بن ثابت وكعب بن مالك وعبدالله بن رواحة، الذين قال فيهم[٣]: "هؤلاء النّفر أشدّ على قريش من نَضْح[٤] النَّبْل".

أمّا الرسول ﷺ فكان موقفه من الشعر نابعًا من موقف القرآن الكريم، يُثني على ما لا يخرج منه عن تعاليم الإسلام، ويذّم ويحظر ما خالفها. روي عنه أنّه قال[٥]: "الشّعر ديوان العرب"، و"إنّ من الشعر لحكمة، وإنّ من البيان لسحرًا"، و"إنّما الشعر كلام مؤلف. فما وافق الحقّ منه فهو حسن، وما لم يوافق الحقّ منه فلا خير فيه"، و"إنّما الشعر كلام؛ فمن الكلام خبيث وطيّب"، و"لئن يمتلئ جوف أحدكم قيحًا حتّى

(٢) الشعراء، الآيات ٢٢٤-٢٢٧.

(٣) **العمدة**، ١:٣١، تحقيق محيي الدين عبدالحميد، دار الجيل، بيروت، ط٤، ١٩٧٢م.

(٤) النّضح هنا: الرمي.

(٥) راجع في هذه الأقوال: **جمهرة أشعار العرب**، ص٣٤-٤٠، تحقيق محمد علي البجاوي، دار نهضة مصر، القاهرة. د.ت؛ والعمدة، ١:٢٧، ٣١، ٢:١٧٠.

يريَه[٦] خير من أن يمتلئ شعرًا"، وقوله يتوعّد شعراء الهجاء: "من قال في الإسلام هجاء مقذعًا فلسانه هَدَر".

وكان ﷺ يستمع إلى صحابته وهم يتناشدون الأشعار فيسكت، ويبتسم أحيانًا، وكان يسأل أبا بكر - رضي الله عنه - الذي كان يحفظ الشعر عن صحّة روايات بعض الأشعار، ويقول "كيف قال يا أبا بكر؟"[٧].

وكان يعجب بالشعر ذي المعاني الأخلاقيّة النبيلة ولو كان قائله جاهليًّا. فقد أُعجب ببيتي عنترة بن شدّاد[٨]:

ولقد أبيتُ على الطّوى وأظلّه
حتّى أنالَ به[٩] كريم المأكل

وأغضّ طرْفي إنْ بدت لي جارتي
حتّى يواريَ جارتي مأواها

وقال[١٠]: "ما وُصف لي أعرابيٌّ قطّ فأحببت أن أراه إلاّ عنترة".

وكان يقول: "أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد: *ألا كلّ شيء ما خلا الله باطل*". ويقال إنّه تمثّل بقول سُحيم عبد

(٦) يريه: يفسده. والماضي: روى.

(٧) **الأغاني**، ١٧:٨٧، تحقيق محمد علي البجاوي، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٠م.

(٨) البيتان ليسا في: **ديوان عنترة**، (طبعة دار صادر ودار بيروت، ١٩٥٨م).

(٩) حرف الجرّ "البّاء" هنا يفيد البدل.

(١٠) **الأغاني**، ٨:٢٤٣، مصوّرة دار الكتب المصريّة، القاهرة، د.ت.

بني الحسحاس، الذي يُقال إنّه أدركه: "وكفى بالشيّب والإسلام للمرء ناهيا". فقال أبو بكر: إنّما هو "كفى الشيّب والإسلام"(١١). فأعادها، ﷺ، كالأول. فقال أبو بكر: أشهد أنّك رسول الله ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ [يس: ٦٩]. وهذا ما عناه أبو الفرج إذ قال: "إنّه - الرسول - تمثّل بكلمات من شعره غير موزونة"(١٢). ويقال إن عمر بن الخطّاب، رضي الله عنه، قال لسحيم في مقولته نفسها: "لو قلت شعرك كلّه مثل هذا لأعطيتك عليه"(١٣).

ويقال إن زيد الخيل الطّائي من مخضرمي الجاهليّة والإسلام، وفد على الرسول ﷺ في المدينة في وفدٍ من قبيلته في أواخر عام (٩هـ) أو أوائل عام (١٠هـ) وأسلم. فسمّاه "زيد الخير"، وقال له: "ما وُصف لي رجلٌ قطّ فرأيته إلاّ كان دون ما وصف به إلاّ أنت، فإنّك فوق ما قيل فيك"، و"إنّ فيك خصلتين يحبهما الله، عزّ وجلّ، ورسوله...: الأناة والحلم". فدخل بهذا في عداد الصحابة(١٤).

---

(١١) البيت كاملاً:

عُمَيْرةَ ودّعْ إن تجّهزتَ غاديا
كفى الشّيب والإسلام للمرء ناهيا

ديوان سحيم عبد بني الحسحاس، ص١٦، تحقيق: عبدالعزيز الميمني، (الدار القوميّة للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٥م).

(١٢) **الأغاني**، ٢٢:٣٠٣ تحقيق علي السّباعي وعبدالكريم العزباوي ومحمود غنيم، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٣م.

(١٣) المصدر نفسه، ٢٢:٣٠٥.

(١٤) المصدر نفسه، ١٧:٢٤٨-٢٥١.

وكان يعلّق على بعض الأبيات ويوجّه أصحابها توجيهات تتواءم مع جوهر الدين الإسلامي ومبادئه السمحة. فلّما وفد عليه النابغة الجعدي، وأنشده قصيدته التي منها[١٥]:

أتيتُ رسول الله إذْ جاء بالهدى

ويتلو كتابًا كالمجرّة نيّرا...

ومنها:

بلغنا السّماء مَجْدُنا وجدودنا

وإنّا لنرجو فوق ذلك مظْهرا[١٦]

قال له، وقد شعر بنزوعه إلى فخر الجاهليّة،: إلى أين يا أبا ليلى؟. قال: "إلى الجنّة إن شاء الله". ولّما انتهى إلى قوله:

ولا خيرَ في حلْمٍ إذا لم تكن له

بوادرُ تَحْمي صَفْوه أن يُكدّرا

قال له: "لا يَفْضُضِ الله فاك"[١٧].

(١٥) **شعر النابغة الجعدي**، ص٣٥، جمع عبدالعزيز رباح، المكتب الإسلامي – دمشق ١٩٦٤م. وفي رواية: "تبعت".

(١٦) البيت في العقد الفريد:

بلغنا السماء مجدنا وسناؤنا

وإنّا لنبغي فوق ذلك مظهرا

(١٧) **العقد الفريد**، ٢:٥٢، تحقيق أحمد أمين وزملائه، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٦م.

ولمّا سمع قول كعب بن مالك الأنصاريّ من قصيدة في "أُحد" يردّ فيها على هبيرة بن أبي وهب:

مجالدُنا عن "جِذْمنا" كلّ فخمةٍ
مدرّبةٍ فيها القوانسُ تَلْمعُ[١٨]

وجّهه قائلاً: "لا تقلْ عن (جذمنا)، وقل عن (ديننا)". فراح كعب يقرأ ذلك، ويقول: "ما أعان رسول الله، ﷺ، أحدًا في شعره غيري". ولمّا قال كعب:

جاءت "سخينة" كي تغالب ربّها
فليُغْلَبَنّ مُغالِبُ الغلاّب

قال له: "لقد شكرك الله يا كعب على قولك هذا"[١٩].

المهم أن الرّسول ﷺ اتخذ من الشّعر سلاحًا في وجه شعراء قريش من الكفّار حين جعل حسّان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبدالله بن رواحة، يتصدّون لهم. يروى أنّه كان يقول لحسّان: "اهجهم، فوالله لهجاؤك عليهم أشدّ من وقع السّهام في غَلَس الظّلام. اهجهم ومعك جبريل روح القدس، والقَ أبا بكر يعلّمك تلك الهَنَات"[٢٠].

أمّا الخلفاء الرّاشدون وصحابة رسول الله، وكان أكثرهم ينظمون الشعر ويحفظونه ويتناشدونه ويبدون آراء وتوجيهات

(١٨) الجذْم: الأصل. الفخمة: الكتيبة العظيمة. القوانس: جمع قَوْنس، أعلى بيضة الحديدة.

(١٩) **الأغاني**، ١٦:٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٣.

(٢٠) **العمدة**، ١:٣١.

فيه، فكان موقفهم من الشّعر هو موقف القرآن الكريم والرسول الأكرم.

لم يعد، إذًا، ثمّة مجال لبعض موضوعات الشعر القديمة التي لا تتفق هي ومبادئ الدين، من مثل: الخمرة، والغزل، والهجاء، والفخر بالأحساب والأنساب، والمدح الكاذب. وكان من البديهي، أن تواكب موضوعات جديدة مسيرة الإسلام، وأن يطوّع الشعراء بعض الموضوعات القديمة وفقًا لمبادئه.

موضوعات الشعر:

١- الشعر الديني:

وقد كانت له صدارة الموضوعات الجديدة، وقد تعدّدت مناحيه وتشعّبت، إذ جعل الشعراء ينظمون في مبادئ الإسلام ومُثله العليا ويدعون النّاس إلى معرفتها والأخذ بها، ويتحدّثون عن وحدانيّة الخالق، وعن الوحي والنبوّة والخلق والحياة والموت والبعث والحساب والثّواب والعقاب والجنّة والنّار والحلال والحرام. وتعدّ قصيدة النابغة الجعْدي "الميميّة" مثالاً جيدًا على كثير من هذه المعاني. فمن مقدمتها التي تكاد تكون عجينة قرآنيّة[٢١]:

الحمد لله لا شريك له
مَنْ لم يقلُها فنفسَه ظلما

(٢١) شعر النابغة الجعدي، ص١٣٢.

المولـج اللّيل فـي النّهـــــار (م)
وفي اللّيل نهـارًا يُفـرّج الظُّلَمـا
الخـافض الرّافع السّمـاء على الـ
أرض ولم يَبنِ تحـتـهـا دَعِـمـا
الخـالق البـاريء المصـوّر فـي الـ
أرحـام مـاءً حـتّى يصـيـر دمـا
منْ نُطْفـةٍ قـدّها مُـقَـدّرها
يَخْلُق منهـا الأبشـارَ والنّسـمـا
ثمّ عِظامًـا أقـامـهـا عَـصَبٌ
ثُمّت لحـمًـا كـسـاه فـالتـأمـا

ويندرج في الشـعـر الديني الوعظ والإرشـاد والنّصح المستوحى ممّا أوصى به الإسلام أو نهى عنه في بعض شعر "الوصـايا" وهو، إنْ لم يكن مـوضـوعًـا جـديدًا إذ عـرفـه الجـاهليـون في الشّـعـر والنثـر، تمثل في الإسـلام روحـه ومبادئه، كقول عَبدةَ بن الطّبيب من عينيّة أوصى بها أبناءه بعد أن أسنّ ورابه بصره[٢٢]:

أُوصـيكم بتُـقى الإله فـإنّه
يُعطي الرَّغـائبَ مَنْ يشـاءُ ويمنعُ

(٢٢) **المفضليات**، ص١٤٥، تحقيق أحمد شاكر وعبدالسلام هارون، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٥٢م.

وببـــرِّ والـدكم وطـاعـــةِ أمـــره
إن الأبـرّ مـن الـبـنـين الأطـوع...
ودعوا الضّغينة لا تكنّ من شأنكم
إن الضّـغـائن للقـرابة تُوضَع[٢٣]
واعصُوا الذي يُزجي النّمائم بينكم
مُـتَنَصِّـحًـا ذاك السِّـمـامُ المُنْقع

ومن الشعر الديني، شعر الزهد النّابع من مبادئ الإسلام في العزوف عن الدّنيا الفانية والرّضا بالقليل الكافي منها، والتّوكل على الله والاعتماد عليه والعمل على مرضاته والجهاد في سبيل إعلاء كلمته، وفي تذكر الموت والقيامة. لقد ترددت هذه المعاني الزهديّة في شعر عدد من الشعراء المسلمين، وليس ببعيدٍ أنْ كان للوعّاظ والزّهاد الذين انتشروا في أنحاء الدولة الإسلاميّة يعظون الناس ويزهدونهم، أثر فيمن كان يتردّد من الشّعراء على مجالسهم الوعظيّة ويستمع إلى حلقاتهم في التّزهيد والتّرغيب والتّرهيب. يقول أبو الأسود الدؤلي[٢٤]:

وإذا طلبتَ من الحـوائج حـاجـةً
فـادعُ الإله وأحـسـنِ الأعـمـالا
فليـعـطينّك مـا أراد بقـدرةٍ
فـهـو اللّطيف مـا أراد فـعـالا

(٢٣) توضع: تتفشى بسرعة.

(٢٤) **ديوان أبي الأسود الدؤلي**، ص١٦٢، تحقيق محمد حسن آل ياسين، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط١، ١٩٧٤م.

إنّ العـبـاد وشـأنَهم وأمـورَهم
بيـد الإله يقلّب الأحـوالا
فـدعِ العـبـاد ولا تكن بطلابهم
لَهِجًا تُضَعْضَعُ للعباد سؤالا

٢- شعر الغزوات والأحداث الكبرى وفتح مكّة:

وهو، على قلّته لضياع أكثره وطمسه، يشتمل على ما كان من "نقائضٍ" بين شعراء كفّار قريش وشعراء الإسلام كالذي كان، مثلاً، بين ضِرار بن الخطّاب وكلٍّ من حسّان وكعب؛ ويصف الحروب ومجريات أحداثها.

صفوة هذا أنّ "مضى الشّعر مع الحروب، فهو جزء منها وسلاح من أسلحتها. وفي الحروب تزدهر فنون الفخر والزّهو بالقوة وحسن البلاء، والحماسة، والهجاء، والرثاء، والمدح".

وقد شمل الفخر جانبين: دينيًا يعتزّ بالإسلام وبرسول الله وجنوده، وذاتيًا بالنّفس والأهل والقبيلة. وسجلّ الشعراء أحداث الحروب من كرّ وفرّ، وهزيمة ونصر، وذكر المواضع، وتسمية أشخاص بأسمائهم، ورَثَوْا عددًا من الشهداء[٢٥].

٣- اعتذاريات شعراء قريش:

التي قالوها بعد أن أسلموا، التي أظهروا فيها ندمهم على مناهضة الرسول ﷺ والإسلام والمسلمين، والتمسوا

(٢٥) **شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه**، ص٣٥٤-٣٥٥؛ وراجع، كذلك، ص٥٩-٢٦٠.

العـــذر، وأعلنـــوا التوبـــة، من مـثـل: ابن الزّبَعْرى، وضـــرار بن الخطّاب، وأبي سفيان المغيرة بن الحارث بن المطّلب[٢٦].

يقول ابن الزّبعرى، مثلاً[٢٧]:

يا رســـولَ المليك إنّ لســـاني
راتقٌ مـا فـتـقتُ إذْ أنا بُور[٢٨]
آمـن الـلّـحـمُ والـعِـظـامُ بمـا قُـلـ
ـتَ فنفـسي الفِـدى وأنت النذير

ويقول[٢٩]:

إنّـي لمـعـتـــذرٌ إليك مـن الذي
أَسْـديتُ إذْ أنا في الضّـلال أهيمُ[٣٠]
فاغفرْ - فِدًى لك والدايَ كلاهما -
ذنْبي، فـــإنّك راحمٌ مـــرحـــوم
وعليك من أثَرِ المليك عـــلامـــةٌ:
نورٌ أضـــاء، وخـــاتَمٌ مـــخـــتـــوم

(٢٦) المرجع نفسه، ص١٣٤-١٣٦، ١٤٤، ١٥٦-١٥٧.

(٢٧) ابن سلاّم الجمحي: **طبقات فحول الشعراء**، ١: ٢٤٢، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، د.ت.

(٢٨) بور: الرجل الضّال الهالك الفاسد، الذي لا خير فيه.

(٢٩) **طبقات فحول الشعراء**، ١"٢٤٣.

(٣٠) المقصود بـ "أسديت" الشعر الذي نظمه في هجاء الرسول.

مضتِ العداوة فانقضتْ أسبابُها
ودعتْ أواصـــــــرُ بيننا وحلوم

٤- الشعر السياسي:

الذي قد تعود بدايته إلى المناهضة الشّديدة التي لقيها الإسلام والرّسول الأكرم من شعراء قريش ومن تبعهم من شعراء القبائل واليهود، حين احتدم النزاع بين هؤلاء وشعراء الإسلام الذين أخذوا ينافحون عن الدّين الجديد وتعاليمه بتسفيه آراء المعارضين وردّها، وتبيين فساد النّظام القبلي والجاهلي. لعل قصيدة حسّان بن ثابت التي قالها في وفد بني تميم والتي مطلعها[٣١]:

إنّ الذوائب من فِـهْـرٍ وإخـوتهم
قـــد بينّوا سُنّة للناس تُتـــبع

تكون من بواكير هذا الشعر، ومنها:

يرضى بها كلّ من كانت سريرته
تقوى الإله، وبالأمر الذي شرعوا
قومٌ إذا حاربوا ضرّوا عدوّهمُ
أو حاولوا النّفْع في أشياعهم نفعوا
سجيّةٌ تلك منهم غيرُ محدثةٍ
إنّ الخلائق، فاعلَم، شرّها البِدع

(٣١) **ديوان حسّان بن ثابت**، ص٢٣٨، تحقيق سيد حنفي، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٤م.

ومنها:

أكـرمْ بقـومٍ رسـولُ الله قـائدُهمْ
إذا تفـــرّقتِ الأهواء والشِّـــيع
فـإنَّهم أفـضل الأحـيـاء كلّهمُ
إنّ جدّ بالناس جِدُّ القول أو سمعوا

أمّا الموضوعات التي طوّعت إسلاميًا فأهمها:

٥ ـ الفخر والحماسة:

اللّذان ركّزا على الصلة بالإسلام والجهاد، لأن معظم الشعراء كانوا من المجاهدين الذين حاربوا بسيوفهم، وشعرهم. وقد عُنوا بالفخر بالدين الجديد ومآثره، وما يدور في فلكه من انتصارات المسلمين وتأييد الملائكة لهم، والشّهادة في سبيل الله. وتحوّل الفخر من قبليّ شخصي إلى فخر عام بالمسلمين العاملين لإعلاء كلمة الحقّ والدّين مسترشدين شعراؤه بتعاليم الإسلام ومتأثرين بمعاني القرآن الكريم ومفرداته. فحسّان بن ثابت يفتخر بنصرة قومه رسول الله ﷺ وبلائهم في سبيل الدّين، وإقامة شرائعه[٣٢]:

الله أكـــرَمَنا بنصـــر نبـــيّـــهِ
وبنا أقـــام دعـــائم الإســـلامِ
وبنا أعـــزّ نبـــيَّـــه وكـــتـــابه
وأعـــزّنا بالضَّـــرْب والإقـــدامِ

(٣٢) ديوان حسّان بن ثابت، ص١٤٣.

في كلّ مُعْتركٍ تُطير سيوفنا
فيه الجماجمَ عن فِراخ الهام
ينتابُنا جبريلُ في أبياتنا
بفرائض الإسلام والأحكام
فنكونُ أوّلَ مستَحِلٍّ حلالَه
ومُحَرِّمٍ لله كلَّ حرام
نحن الخيَارُ من البريّة كلِّها
ونظامها وزمام كلّ زمام

وافتخر النابغة الجعدي بأن مدّ الله في عمره، إلى أن شرّفه بالإسلام(٣٣):

وعُمِّرْتُ حتى جاء أحمدُ بالهدى
وقوارعٍ تُتلى من الفرقان(٣٤)
ولَبِستُ مِ الإسلام ثوبًا واسعًا
من سَيْب لا حَرِمٍ(٣٥) ولا منّان

٦- المديح:

الذي قلّ في هذا العهد، إذ رغب الرسول ﷺ، وخلفاؤه من بعده، عن مدح الشّعراء، لأنّهم ما كانوا في حاجةٍ إلى إطراء أو ثناء بقدر ما كانوا في حاجة إلى الأجر والثّواب من الله

(٣٣) **شعر النابغة الجعدي**، ص٢٠٧.
(٣٤) القوارع من القرآن: آيات الوعد والوعيد.
(٣٥) الحرم: المانع.

سبحانه. بيد أن ثمّة من مدح الرّسول ﷺ، وولاة الأمر من بعده، مدحًا من نوع جديد يزاوج بين المعاني الإسلاميّة الجديدة والمعاني المعهودة، غير أن معاني الجاهليّة جعلت تقلّ ما أوغل الناس في الإسلام.

من هذا الضرب الجديد، قول كعب بن مالك(٣٦):

فينا الرّسول شِهابٌ ثم يتبعه
نورٌ مضيءٌ له فضلٌ على الشُّهُبِ
بدا لنا فاتّبعناهُ نصدِقهُ
وكذّبوه فكنّا أسعَد العرب

وقول حسّان بن ثابت في الزّبير بن العوّام(٣٧):

أقام على عهد النبيّ وهَدْيه
حواريُّه، والقولُ بالفعل يُعْدَلُ
أقام على منهاجه وطريقه
يوالي وليَّ الحقّ، والحقُّ أعدل

٧- الرّثاء:

فازدهر ازدهارًا ساير روح العصر وكثرة الأحداث وتسارعها، فكان على المسلمين أن يرثوا شهداءهم في الغزوات والمعارك من مثل بدر وأُحُد. وكانت وفاة

(٣٦) ابن هشام: **السيرة النبويّة**، ٢: ١٦١، تحقيق مصطفى السّقا وزميليه، البابي الحلبي، القاهرة، ط٢، ١٩٥٥م.
(٣٧) **ديوان حسّان بن ثابت**، ص٢٩٤.

الرّسول ﷺ حافزًا كبيرًا على الرثاء، الذي تبدّلت مضامينه فأخضعت لمبادئ الإسلام وتعاليمه، فركّز الشعراء على مناقب المرثيين التي تتصف بالتّقوى والإيمان والوفاء والخير والرّحمة والعفو، وخدمة الإسلام وطاعة الله ورسوله بعيدًا عن البكاء والعويل والنُّواح، لأنّهم كانوا يريدون أن يعبّروا عن أحزان الجماعة الإسلاميّة وفجيعتها لا عن أحزانهم هم، وكانوا يرغبون في تصوير فداحة الخطب بالنسبة للإسلام والمسلمين كافة. يقول حسّان بن ثابت في رثاء الرّسول ﷺ(٣٨):

بالله ما حملت أُنثى ولا وضعتْ
مثلَ النبيّ رسولِ الرّحْمة الهادي
ولا مشى فوق ظهر الأرض من أحدٍ
أوفى بذمَّةِ جارٍ أو بميعاد
من الذي كان نورًا يُستضاء به
مُبارَك الأمرِ ذا حزْمٍ وإرشاد؟
خيْرُ البريّة إنّي كنت في نَهَرٍ
جارٍ فأَصبحتُ مثلَ المُفْردِ الصّادي

ورثى كعب بن مالك حمزة بن عبدالمطلب، الذي استشهد في "أُحد" مخاطبًا صفيّة أُخته(٣٩):

(٣٨) المصدر نفسه، ص٢٠٧.
(٣٩) **السيرة النبويّة**، ٢:١٥٨.

صـفـيّـة قـومي ولا تعـجـزي
وبكّي النّسـاء على حـمـزةِ
ولا تسـأمي أن تُطيلي البكا
على أسـد الله في الهِـزّة
فـقـد كـان عـزًّا لأيتـامنا
ولـيثَ المـلاحم في البـزَّة
يريد بذاك رضـا أحـمـدٍ
ورضـوان ذي العـرش والعـزّة

٨ - الهجاء:

فقد حظر الإسلام المقذع الفاحش منه منذ البداية، بيد أنّ الرسول ﷺ أباح لنفرٍ من شعرائه أن يهجوا شعراء الكفّار ويدافعوا عن المسلمين بعد أن التحم الفريقان باللّسان والسّنان، فازدهر هذا الفنّ ونشط منذ ذلك التاريخ إلى الفتح إذ دخل القرشيون في دين الله وكان له بعض رواج. وكان، في الغالب، استمرارًا لأساليب الشعراء الجاهليين الذين كانوا يعرضون لأنساب النّاس وأحسابهم وأخلاقهم. بهذا اشْتهر حسّان وكعب بن مالك اللّذان كانا يعارضان شعراء الكفّار بمثل أقوالهم في الوقائع والأيام والمآثر والأنساب، أمّا عبدالله بن رواحة فكان يهجوهم بالكفر والانحراف عن الدين مفيدًا من صور القرآن الكريم وأساليبه في تسفيه آرائهم وعقائدهم، فكان وقع شعره عليهم شديدًا

بعد أن أسلموا. لقد كانت أقوال حسّان وكعب، بدءًا، أشدَّ عليهم، وقول ابن رواحة أهونَ، فلّما أسلموا وفقهوا الإسلام كان أشدَّ القول عليهم قول ابن رواحة. وليس ببعيدٍ أن يكون هذا سببَ نهي عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، النّاس أن ينشدوا شيئًا من مناقضة الأنصار ومشركي قريش. لأن "في ذلك شتم الحيّ بالميّت وتجديد الضغائن، وقد هدم الله أمر الجاهليّة بما جاء من الإسلام"(٤٠)، وسببَ ضياع ما ضاع من شعرهم وطمسه. لاسيّما كعب وعبدالله اللذان لم يصل إلينا ديواناهما(٤١).

ومن الهجاء الذي يجمع بين ضربي الهجاء هذين قول حسّان بن ثابت في هجاء أبي سفيان بن الحارث(٤٢):

ولستَ بذي دينٍ ولا ذي أمـــانةٍ
ولست بحُـــرٍّ من لُؤيٍ ولا كَـــعْبِ
ولكنّ هجينٌ ذو دناةٍ لُمُقَـــــرفٍ
مُجاجةَ ملحٍ غيرَ صافٍ ولا عذب

الخصائص والسمات الفنية:

إذا ما أخذنا بحتميّة تداخل الحقب والعصور، لاسيّما في السمات والخصائص الفنيّة، التي عُدّتْ تقاليد متوارثة لا

(٤٠) **الأغاني**، ٤:١٤٠-١٤١.

(٤١) راجع: الجدلية الخامسة، جدلية الانقطاع للشعر والشاعر الفحل: شعراء الرسول بين الأصمعي وابن سلاّم نموذجًا. في كتابي: **في النقد الأدبي: جدليّات ومرجعيّات**، ص٨٨-٨٩، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ٢٠١٤.

(٤٢) **ديوان حسّان**، ص١١١.

يمكن الفكاك منها أو الاهتداء إلى غيرها بسهولة، يمكن أن نفسّر سرّ امتداد الشّعر الجاهلي امتدادًا يختلف مظهرًا ودرجة في شعر صدر الإسلام عامّةً، فليس من السّهل أن يتخلّى الشّاعر بين يوم وليلة عن تقاليد فنيّة ناضجة درج عليها الشعراء قبله. ربما كان هذا كلُّه وراء سلك ابن سلاّم في "طبقات فحول الشعراء" الشّعراء المخضرمين تحديدًا في طبقات الجاهليين ولم يقررْ لهم طبقاتٍ مستقلّة كما هو شأن شعراء الجاهلية والعصر الأموي(٤٣).

وعلى الرّغم من تأثر شعراء الإسلام بالقرآن الكريم والقيم الإسلاميّة لم يتسنّ لهم انتقال حضاريّ وفنيّ سريع، بل ظلّ الشعر الجاهلي تراثًا لهم يعتمدون عليه في بناء القصيدة والصورة والخيال(٤٤). لقد فرضت طبيعة هذا الانتقال المفاجئ على الشّعراء أن يزاوجوا بين النّمط الجاهلي والنّمط الجديد الذي يستخدم الشاعر فيه بعض مفردات القرآن الكريم والمعاني الدينيّة، ويتخلّص أو يتخفّف من المعجم الشعري الجاهلي مؤثرًا عليه بساطة التعبير التي تسلمه إلى "النّظم" والرّكاكة والابتذال الفني. هذا النمط لا يمكن أن يوصف بأنّه إسلاميّ بكلّ ما يحمله اصطلاح "إسلامي" من أبعاد، لأن شعراء الإسلام لم يكونوا بحكم هذه

(٤٣) شوقي ضيف: **التطور والتجديد في الشعر الأموي**، ص٢٣، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٥٩م.

(٤٤) راجع: عبدالقادر القطّ، **في الشعر الإسلامي والأموي**، ص٤١، ٤٥-٤٦، ٤٨-٥٠؛ وسامي مكي العاني: **الإسلام والشعر**، ص٢٠٤ وما بعدها.

النّقلة السّريعة، يصدُرون في الدّفاع عنه وفي هجاء المشركين عن تصور دينيّ عميق واضح المعالم والقسمات، ولم يستطيعوا أن يلائموا ملاءمة جادّة بين مقتضيات الشّعر ودواعي السّياسة أو الدّين، بل كانوا يخلطون بين وقائع الحروب والأحداث الشخصيّة ومعانٍ دينيّة لا تساعد على الاهتداء إلى أسلوب فنيّ جديد يختلف عمّا قبله. لقد صوروا الوقائع الحربيّة بين المسلمين والمشركين في شعر الأحداث، كما كانت تُصوّر "أيام العرب" ومنازعات القبائل في الجاهليّة، مع أن بعضها من مثل غزوة بدر وغزوة أُحد كان يحفل بكثير من "المواقف الدراميّة" لاسيّما في بدر وأُحد. وكانوا، كذلك، في أكثر موضوعات شعرهم عدا ما فيها من الألفاظ والمعاني الإسلاميّة. لقد ظلّ بناء القصيدة الجاهليّة هو المتّبع لاسيّما عند الشعراء الكبار، أمّا المقلّون فتغلب على أشعارهم القصائد القصيرة والمقطوعات والنتف، التي تتجاوب في لغتها وصورها وتواترها مع واقع الحياة الجديدة والموقف الجديد. المهم أن معظم الشعراء تخلصوا أو تخفّفوا في بناء القصيدة من المقدمات الطلليّة أو الغزليّة، ومخاطبة الاثنين، والرحلة ومستلزماتها من ناقة أو جمل وصحراء، وشاعت لفظة "أبلغ" وقولهم: "يا راكبًا إمّا عرضت فبلّغن" في مطالع أشعارهم. كقول حسّان بن ثابت(٤٥):

فيا راكبًا إمّا عرضتَ فبلِّغَنْ
على النأيّ منّي عبد شمسٍ وهاشما

(٤٥) **ديوان حسّان**، ص١٠٤. وفيه "يا راكبًا" فيكون فيه زحاف "الخَرْم" لأنّه من الطويل. وتصحيحه أفضل.

ومن خصائص هذا الشعر، نزوعه إلى "النظم" والتعبير المباشر لاسيّما في موضوعة الأحداث والوقائع، وإن تأثر بألفاظ القرآن ومعانيه. يقول حسّان من قصيدة في غزوة الأحزاب(٤٦):

حتى إذا وردوا المدينة وارْتَجوْا
قتلَ النّبي ومغْنَم الأسلابِ
وغدَوْا علينا قادرين بأيدهم(٤٧)
رُدّوا بغيظهم على الأعقاب
بهبوبِ مُعْصفةٍ تُفرّق جمعهُمْ
وجنود ربّك سيّد الأرباب
وكفى الإله المؤمنين قتالَهم
وأثابهم في الأجر خيرَ ثواب

يقود هذا إلى ضعف المستوى الفني لهذا الشعر عامة، ولشعر الشعراء الذين اتصلوا اتصالاً وثيقًا بالصراع بين المشركين والمسلمين خاصة. وهذا أمر طبيعيّ، لأن هؤلاء الشّعراء تحملوا، منذ البداية، عبء الاتصال بالقيم الجديدة وما تحمله من مظاهر التّغير في الأخلاق والسّلوك والقيم الاجتماعيّة والروحيّة. وهذا التّحول يحتاج إلى نقلة أطول لكي يغدو ممكنًا التعبيرُ عنه بأساليب وأنماط شعريّة جديدة تناسبه.

(٤٦) **ديوان حسّان**، ص١٣، نشرة عبدالرحمن البرقوقي، دار الأندلس، بيروت، ١٩٧٨م.

(٤٧) بأيدهم: بقوتهم.

يقال إن هذا الضعف في المستوى الفنيّ قد بدأ قبيل الإسلام منذ أخذ نجم فحول الشّعراء الجاهليين بالأفول. هنا تكمن أهمية مقولة الأصمعي "طريق الشعر إذا أدخلته في باب الخير لان؛ ألا ترى أن حسّان بن ثابت كان علا في الجاهليّة والإسلام فلّما دخل شعره في باب الخير – من مراثي النّبي ﷺ وحمزة وجعفر، رضوان الله عليهم، وغيرهم (لان) شعره – وطريق الشّعر هو طريق شعر الفحول مثل امرئ القيس وزهير والنّابغة، من صفات الدّيار والرَّحْل والهجاء والمديح والتّشبيب بالنساء وصفة الحُمُر والخيل والحروب والافتخار، فإذا أدخَلْتَه في باب الخير لانَ"[٤٨]. وقوله: "الشعر نَكِدٌ بابه الشّر، فإذا دخل في الخير ضعف. هذا حسّان بن ثابت فحل من فحول الجاهليّة، فلمّا جاء الإسلام سقط شعره"[٤٩]، وقوله: "شعر حسّان في الجاهليّة من أجود الشّعر، فقُطع متنه في الإسلام، لحال النبي ﷺ"[٥٠].

(٤٨) **فحولة الشعراء**، ص٤٠، نشرة محمد عبدالمنعم خفاجي وطه محمد الزّيني، المطبعة المنيريّة، القاهرة، ط١، ١٩٥٣م؛ والمرزباني: **الموشح**، ص٨٥، ٩٠. تحقيق علي محمد البجاوي، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٦٥م؛ **وأمالي المرتضى**، ص٢٦٩، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، البابي الحلبي، القاهرة، ط١، ١٩٥٤م.

(٤٩) **فحولة الشعراء**، ص٥٣؛ وابن قتيبة: **الشعر والشعراء**، ص٣٠٥، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٦م؛ وابن عبدالبر: **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**، ١:٣٤٦، تحقيق محمد علي البجاوي، دار نهضة مصر، القاهرة، (د.ت).

(٥٠) **الشعر والشعراء**، ص٣٠٥.

وثمّة نصّ، لا يُعرف صاحبه، يشبه نصيّ الأصمعي الأخيرين ويختلف عنهما بوجود "كاد"، هو: "من عجائب أمر حسّان أنّه كان، يقول الشّعر في الجاهليّة فيجيد جدًا ويغبُر في نواصي الفحول... فلمّا أدرك الإسلام... تراجع شعره وكاد يركّ قوله[٥١].

وقد استند إلى هذا النّص المستشرق الإيطالي كارلونالينو، وإنْ نسبه إلى ناقله الثّعالبي نفسه، وإلى أقوال الأصمعي السالفة، فقال في حسّان: "فإنّ أجمل شعره ما قاله في الجاهليّة واصفًا ملاذ عيشه في جلّق وغيرها من قرى الشّام، ومادحًا الملوك الغسّانيين الذين كان يفد عليهم لينال منهم الهدايا والجوائز"[٥٢]. واستشهد، كما القدماء (ابن قتيبة والثّعالبي مثلاً) بقصيدة حسّان المشهورة في مدح الغساسنة التي مطلعها[٥٣]:

أسألتَ رسم الدّارِ أمْ لم تسألِ
بين الجوابي فالبُضَيْعِ فحَوْملِ[٥٤]

والتي منها:

لله دَرُّ عِصابةٍ نادمتُهمْ
يومًا بجلّقَ في الزّمان الأوّلِ

(٥١) أبو منصور الثعالبي: **خاص الخاص**، ص١٠٢، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٦م.

(٥٢) **تاريخ الآداب العربيّة من الجاهلية حتّى عصر بني أمية**، ص٨٧-٨٨، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٧٠م.

(٥٣) **ديوان حسّان بن ثابت**، ص١٢١.

(٥٤) الجوابي: جابية الجولان، قرية هناك. البُضيع: سنٌّ ناتئة كالجزيرة بدمشق.

أولادُ جَـفنةَ عند قــبــر أَبيــهُمُ
قبرِ ابن ماريّةَ الكريم المُفْضِلِ(٥٥)
يُغْـشَـوْن حـتَّى مـا تَهـرُّ كـلابُهم
لا يَسـألون عن السَّـوادِ المُقْـبِلِ
بيضُ الوجـوه كـريمةٌ أحـسـابُهم
شُـمُّ الأُنـوفِ مـن الـطِّـراز الأوّلِ

إن هذا النّمط الجاهلي الذي يجري مجرى الفحول أسلوبًا وجزالة لغةٍ يختلف عن قول حسان، مثلاً، في رثاء الرّسول ﷺ الآتي في مسارٍ مختلف ليّن لغةً وتناولاً(٥٦):

مـا بال عَـيْني لا تنامُ كـأنّمـا
كُـحِلتْ مـآقـيـهـا بكحْلِ الأَرْمـدِ
جَـزَعًـا على المهـديّ أصبـح ثاويًا
يا خيرَ من وطئ الحصا لا تَبْعُد
أأُقـيمُ بعْـدَك في المدينة بينهُمْ
يا لَهْفَ نفـسي لَيْـتَني لم أُولد
بأبي وأُمّي مَنْ شَـهِـدْتُ وفـاته
يوْمَ(٥٧) الإثنين النبيُّ المهـتـدي

(٥٥) ابن ماريّة: الحارث الأعرج.
(٥٦) **ديوان حسّان بن ثابت**، ص٢٠٨.
(٥٧) في الديوان "في يوم" وكذا في شرح **ديوان حسّان بن ثابت**، ص١٥٣ (نشرة عبدالرحمن البرقوقي). وبه يخرج عن بحر الكامل.

على أيّة حال، فإنّ قولي الأصمعي الأخيرين، أيضًا، لاسيّما الأول الذي فيه "فلّما جاء الإسلام سقط شعره"، يتسمان بالعموميّة والتعميم؛ في حين أن نصّه الأوّل "طريق الشعر..." يحصر "اللّين" و"باب الخير" في "مراثي" الشّاعر للرّسول ﷺ ونفر من صحبه الكرام، ولا يسم به كلّ ما قال في الإسلام من شعر. وهذا فهم دقيق يعكس "قانون الاستواء النفسي" الذي استُنبط من مفهوم بعض القدماء ممن رأوا أن يظلّ الشّاعر ملتزمًا بمستوًى واحد من النّظرة إلى الحياة، ولا يتزحزح من مجال إلى مجال(٥٨)، وبعكس ما أدعوه "قانون الاستواء الفني" الذي يتلخّص في أن يظلّ المبدع على مستوًى فنّي واحد في كلّ ما يبدع. ولقد عرف النّقاد قديمًا أنّ لكلّ نوع من الشّعر أسلوبًا، فقالوا: "فشعر الشّاعر لنفسه ومراده وأمور ذاته - من فرح وغزل... وما أشبه ذلك - غير شعره في قصائد الحفل..."، وأسلوبه في قصيدة غزل يختلف عنه في قصيدة هجاء مثلاً(٥٩).

أمّا نصّ الأصمعي الأول فيفُسّر بأنّه قصر مجال الشّعر على الأمور الدنيوية، التي كانت سائدة في الجاهليّة، وحدّد الموضوعات التي تصلح له ويصلح لها، فخصّ "اللّين" بالموضوعات المتصلّة بالخير والدّين، ووضعه بإزاء "طريقة الفحول". أما كلمة "الخير" فلا تقابل لفظة "الشّر" على الرغم من قول الأصمعي "الشّعر نَكِدٌ بابه الشّر". ربّما يكون

(٥٨) إحسان عبّاس: **تاريخ النقد الأدبي عند العرب**، ص٣٦، دار الشّروق، عمّان، ١٩٩٣م.

(٥٩) **العمدة**، ١:١٩١.

عنى بها "طلب الثواب الأُخروي" أو ما يتصل اتصالاً وثيقًا بالناحية الدينيّة، فيقابله حينئذٍ "دنيويّة الشّعر" واتصاله بالصّراع الإنساني في الحياة(٦٠).

واقع الحال أن حسّانًا - وزميليه كعب وعبدالله وغيرهما - في شعره الجاهلي غيره في شعره الإسلامي، لأنه جرّب في الأول أكثر موضوعاته المعهودة من هجاء ومدح وفخر وغزل ووصف، في حين اقتصر في الآخِر على الموضوعات التي لا تتنافى مع تعاليم الإسلام الذي صاحب مواقفه وأحداثه، وتتبّع أبطاله وشهداءه فمدحهم ورثاهم، وتعقّب خصومه وأعداءه فدفعهم وهجاهم، وإنْ لم يستطع أن يتخلّى كليًا عن سمات شعره الجاهلي لا في الموضوعات والمعاني ولا في الخصائص الأسلوبيّة. روي أنه قيل له: "لان شعرك أو هَرِم في الإسلام يا أبا الحسام، فقال: يا ابن أخي، إن الإسلام يَحْجِز الكذب، وإنّ الشّعر يزينه الكذب.. يعني إن شأن التّجويد في الشعر الإفراط في الوصف والتّزيين بغير الحقّ"(٦١).

أمّا ابن سلاّم، فوجّه "اللين" عند حسّان، أيًا يكن المقصود به، توجيهًا آخر، إذ لم يقرنه بالخير، بل تخذه أداة للتوقف في أخذ الشّعر والاسترابة به في خلال كلامه في "شعراء مكّة" على قصيدة الشّاعر المكيّ أبي طالب بن عبدالمطلب، التي مدح بها الرسول ﷺ:

(٦٠) **تاريخ النقد الأدبي عند العرب**، ص٣٨-٣٩.

(٦١) **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**، ١: ٢٤٦.

وأبيضُ يُسْتسقى الغَمامُ بوجهه
ربيعُ اليتامى عِصْمةٌ للأرامل

فقال: "قد زيد فيها وطُوّلت"(٦٢)، وخلص إلى أن "أشعار قريش لها (لين) فتُشْكل بعض الإشكال"(٦٣)، وقال عن حسّان: "وهو كثير الشّعر جيّده، وقد حُمل عليه ما لم يُحْمل على أحد... وضعوا عليه أشعارًا كثيرة لا تُنقّى(٦٤). قد يعني باللّين في الحالتين تفاوتًا في المستوى الفنيّ وانزياحًا عمّا كان عليه شعر حسّان في الجاهلية كغيره من الفحول. يدعم هذا قوله في (لين) عديّ بن زيد "كان يسكن الحيرة ويراكن(٦٥) الرّيف، فلان لسانه وسهل منطقه، فحُمل عليه شيء كثير وتخليصه شديد. واضطرب فيه خلف الأحمر، وخلّط فيه المفضّل فأكثر"(٦٦).

ووردت الإشارة على ربط اللّين بالانتحال عند الأصمعي، وإلى مصطلح "اللّين" عند أبي حاتم السّجستاني في النّصّ الآتي: "قال الأصمعي: حسّان بن ثابت أحد فحول الشّعراء، فقال له أبو حاتم: تأتي له أشعار ليّنة. فقال الأصمعي: تُنْسب إليه أشعار لا تصحّ عنه"(٦٧).

(٦٢) **طبقات فحول الشعراء**، ص٢٤٤.
(٦٣) المصدر نفسه، ص٢٤٥.
(٦٤) المصدر نفسه، ص١٧٩.
(٦٥) يراكن: يلازم.
(٦٦) **طبقات فحول الشعراء**، ص١٤٠.
(٦٧) **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**، ١: ٣٤٦.

ليس ببعيد أن يكون شوقي ضيف تأثر بمقولة ابن سلاّم في ربط اللين بالانتحال في شعر حسّان في قوله "السّبب فيما يشيع في بعض الأشعار المنسوبة إليه من ركاكة وهلهلة، لا لأن شعره (لان) وضعُف في الإسلام كما زعم الأصمعي، ولكن لأنه دخله كثير من الوضع والانتحال[٦٨]. وتابعه في هذا تلميذه سيد حنفي[٦٩].

على أيّة حال، يبدو من أقوال الأصمعي السالفة أنّ شعر حسّان الجاهلي هو الذي حمله على أن يعترف به "فحلاً" في "فحولة الشعراء"[٧٠]، وإن لم يخترّ له شيئًا في "الأصمعيّات"، في حين أنه لم يسلك كعبًا وعبدالله في "الشّعراء الفحول" وفقًا لمفهومه العام للفحولة، التي تعني "التّفرد" أي غلبة "الشّعر" على كلّ الصّفات الأخرى للشّاعر من "فروسيّة" و"تديّن" و"صلاح"، التي توافرت جميعًا فيهما[٧١].

ومن أخص خصائص شعر هذه الحقبة تأثره بالإسلام والقرآن الكريم تأثرًا متفاوتًا، وإن لم يكن عميقًا[٧٢]. لأنّ الشّعراء الجاهليين الذين أدركهم الإسلام لم يدخلوا فيه مباشرة. فمنهم من دخله ولم يتغلغل في أعماقه، ومنهم من دخله متأخرًا، ومنهم من دخله وارتدّ بعد وفاة الرسول ﷺ. من هنا اختلف تأثرهم بالقرآن ومعانيه وألفاظه ومصطلحاته

(٦٨) **العصر الإسلامي**، ص٨١.

(٦٩) **ديوان حسّان بن ثابت**، التمهيد، ص١٠.

(٧٠) **فحولة الشعراء**، ص٢٠.

(٧١) راجع: **في النقد الأدبي: جدليّات ومرجعيّات**، ص٩٣-٩٥.

(٧٢) **التطور والتجديد في الشعر الأموي**، ص٢٣.

وصوره وأساليبه وقصصه باختلاف بيئاتهم الشّعريّة ومدى صلتهم بالإسلام وفهمه وتعمقه ومشاركتهم في أحداثه(٧٣). مثال هذا قصيدة لكعب بن مالك قالها في بدر ردًا على ضرار بن الخطّاب بن مرداس أحد شعراء قريش، وهي نموذج للنقائض بين شعراء قريش وشعراء المسلمين قد تعدّ من بذور هذا الفنّ الذي كان نوعًا من التجديد في الشعر العربي وإن لم يكن عميقًا، لأن الشّعراء فيه كانوا يختصمون حول "الرأي" و"الفكر"(٧٤). يقول كعب(٧٥):

عجبتُ لأمرِ الله، والله قادرٌ
على ما أراد، ليس لله قاهرُ
قضى يومُ بدرٍ أن نلاقيَ معشرًا
بَغَوْا وسبيل البغي بالنّاس جائر

ومنها:

فأمسوْا وقود النّار في مستقرّها
وكلّ كفورٍ في جهنم صائر

(٧٣) راجع لي: "أثر القرآن في شعر حسّان بن ثابت"، **نشريه انشكده الهيات ومعارف اسلامي**، العدد ٤، كانون الأول ١٩٧٢م. "كعب بن مالك الأنصاري وأثر القرآن في شعره"، **مجلة العرفان** – صيدا. المجلد ٥٩ – العدد الأول، أيّار ١٩٧١م. وهما مدرجان في كتابي المعدّ للطبع "في الشعر العربي القديم: دراسات ونقود وتراجم".

(٧٤) طه حسين: **تقليد وتجديد**، ص٢٦-٢٧، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٧٨م.

(٧٥) **السيرة النبويّة**، ٢:١٤.

تلظّى عليهم وهي قد شبّ حَمْيُها
بزبْر الحديد والحجارة ساجر(٧٦)
وكان رسول الله قد قال: أقبلوا
فولّوْا، وقالوا: إنّما أنت ساحر
لأمرٍ أراد الله أن يَهْلكوا به
وليس لأمرٍ حمّه الله زاجر(٧٧)

فهذه الأبيات متأثرة في معانيها وألفاظها وحوار أسلوبها بعدد من الآيات الشّريفة، من مثل قوله تعالى: ﴿ ...قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾(٧٨)، وقوله: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾(٧٩)، وقوله: ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴾(٨٠)، وقوله: ﴿ ...قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ﴾(٨١) ، وقوله: ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝٧ مَا لَهُ مِن دَافِعٍ ﴾(٨٢).

وتتردّد في أشعارهم أساليب القسم، والدّعاء، والتّكرار، والاستفهام محمّلة بالمعاني والأفكار الإسلاميّة والاقتباسات

(٧٦) زبر الحديد: قطعه. ساجر: موقد.
(٧٧) حمّه الله: قدّره.
(٧٨) الأنعام، الآية ٣٧.
(٧٩) فاطر، الآية ٣٦.
(٨٠) الليل، الآية ١٤.
(٨١) يونس، الآية ٢.
(٨٢) الطور، الآية ٧-٨.

القرآنية لفظًا ومعنىً[٨٣]. فمن القسم قول أبي صخر الهذلي:

أما والذي أبكى وأضحك والذي
أمات وأحيا والذي أمره الأمر

وهو من قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾[٨٤].

ومن الدّعاء قول النُّعمان بن بشير الأنصاري[٨٥]:

ربِّ إنّي ظلمتُ نفسي كثيرًا
فاعفُ عني، أنت الغفور الودود

وأفاد الشعراء، كذلك، من القصص القرآني في الأمور العامّة والخاصّة، ووظّفوها في الموطن المناسب بقصد الزراية والتّهكم أو الاتّعاظ والاعتبار والنّصح والإرشاد. فالنابغة الجعدي يلجأ في هجائه أحدَهم إلى قصّة موسى، عليه السّلام، والسامريّ، فيقول[٨٦]:

فأصبح في النّاس كالسّامريّ
إذْ قال موسى له: لا مِساسا

(٨٣) راجع أمثلة أُخرى في: **الإسلام والشعر**، ص٢٠٤-٢٥٥.
(٨٤) النجم، الآيتان ٤٣-٤٤.
(٨٥) **شعر النعمان بن بشير الأنصاري**، ص٨٥. تحقيق يحيى الجبوري، مكتبة المعارف، بغداد، ط١، ١٩٦٨م.
(٨٦) **شعر النابغة الجعدي**، ص٨٣.

ويذكّر النعمان بن بشير بقصص الأقوام الغابرة في قوله:

قـد رأيتم مـسـاكنًا كـان فـيـهـا
قــبلكم قــوم (تُبّعٍ) و(ثمــود)!